مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 21 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2025 الصفحات 108- 124

سيمياء الأنساق الثقافية في حديث "أم زرع" بين غريب اللفظ وأشكلة النسق

Translation: "Semiotics of Cultural Patterns in the Discourse of 'Am Zera' Between Lexical Strangeness and Pattern Variability"

فوزية بوالقندول[1]،[*]

[1] جامعة قسنطينة 1/ الإخوة منتوري (الجزائر)، *boulkandoul.fouzia@umc.edu.dz*

تاريخ الإرسال: 2024/07/13 تاريخ القبول: 2024/11/24

الكلمات المفتاحية:

نسق؛

غريب؛

حديث؛

سيمياء؛

الثقافة؛

الملخص:

ترتكز هذه الدراسة على استكشاف الأنساق الثقافية المضمرة في نص حديث أم زرع من خلال الوقوف عند المحمولات الدلالية المتوارية خلف الألفاظ الغريبة التي شكلت قاموس هذا الحديث، وذلك بإخضاع بنيته للمساءلة الأنساقية التي ستعري حتما مضمراته النسقية ومخبوءاتين الثقافية معتمدين في ذلك على المقاربة السيميائية ومستقرئين لطرائق اشتغال النسق داخل غريب اللفظ الذي كان علامة لغوية مائزة في هذا الحديث الشيق.

Keywords:
Context, ambiguous, Hadith, semiotic, culture,

ABSTRACT:

This study is based on exploring the cultural patterns implicit in the text of Hadith Umm Zar' by examining the semantic predicates hidden behind the ambiguous words that formed the dictionary of this hadith by subjecting its structure to systematic questioning, that will inevitably expose its stylistic implications and cultural hidden things. Relying on the semiotic approach, we extrapolate the methods of operation of the system within the atypical pronunciation, which was a distinctive linguistic sign in this interesting hadith.

[*] فوزية بوالقندول.

توطئة:

إنّ الألفاظ كانت ولا تزال أوعية المعاني وخزائن الأفكار حيث تتوقف عليها كثير من أمور الناس والحياة، بل إنّ كثيرا من العلماء قدّموها على المعاني، يذكر الإمام "مجد الدّين بن الأثير" ما هو لازم لمعرفة علم الحديث، فيقول: "أحدهما معرفة ألفاظه والثاني معرفة المعاني، ولاشك أن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة، لأنّها الأصل في الخطاب، وبها يحصل التفاهم، فإذا عرفت ترتبت المعاني عليها، فكان الاهتمام ببيانها أولى"[1]. وعليه فقد اشترط الأئمة معرفة الألفاظ والإلمام بها، حتى إنّ "العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفُتيا بسبب، حتى لا غنى لأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلّى الله عليه وسلم عربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجلّ وما في سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من كلّ كلمة عربية أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللّغة بُدًّا"[2].

وقد ذهب العلماء والمهتمون بالعربية إلى أبعد من ذلك حين توسعوا في فهم اللّغة وألفاظها وذلك بوضع مصنفات تهتم بغريب المفردات في القرآن الكريم، من ذلك كتاب: "غريب القرآن" لعبد الله بن عبّاس (ت 68 ه) وكتاب غريب القرآن "لابن قتيبة" وغيرها(*) ولم يتوقف الاهتمام بغريب اللفظ عند التأليف في مفردات القرآن الكريم، بل امتد ذلك إلى الحديث النبوي الشريف، فألف "أبو عبيدة" كتاب "غريب الحديث"، وكذا "الأصمعي" وكتاب "غريب الحديث" للنضر بن شميل المازني (ت 202 ه) وهو أحد شيوخ إسحاق بن راهويه، شيخ البخاري[3].

مصطلح "الغريب": المفهوم والدلالة والحقيقة:

قبل الولوج إلى التفاصيل المتعلقة بعلم غريب الحديث من حيث المصطلح وأسباب النشأة، قمينٌ بنا الوقوف أوّلا عند مصطلح "الغريب" ذاته لنفكّك بنيته المعجمية ونقف عند مختلف دلالاتها.

جاء في لسان العرب لابن منظور: "الغريب: البعيد عن وطنه، جمعه غرباء، قال الشاعر (من الطويل):

إذا كوكبُ الخرقاء لاح بسُحرةٍ سُهَيْلُ أذاعتْ غَزْلَها في الغرائب"[4]

وجاء عند العرب: "قَذَفَتْهُ نوى غَربة، أي بعيدة"[5]، كما ورد في كلامهم: "أصابه سهمُ غَرْبٍ وسهمُ غربٍ، أي لا يدري راميه"[6] وقالوا: "اغترب فلان إذا تزوّج إلى غير أقاربه"[7].

وقيل "العلماء غرباء لقلتهم فيما بين الجُهّال... والغريب من الكلام: الغامض.. وأتى في حديثه بالغريب إذا كان بعيدا عن الفهم.. وغَرُبَتِ الكلمة: غَمُضَتْ، وتكلّم فأغربَ: جاء بغريب الكلام ونوادره"[8].

ممّا سبق يتبيّن لنا أن مادة (غرب) تنضوي على دلالات متعددة كالبُعد والنأي والانفراد عن أبناء الجنس الواحد. كما حملت المادة في أصولها المعنى الاصطلاحي لكلمة "الغريب" وهو "الغموض".

كما نلاحظ أن الكلام الغريب أو الغريب في اللفظ "كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة"[9].

وعليه فقد أولى علماء اللّغة العربية أهمية فائقة للفظ الغريب بل ذهبوا إلى التفريق بين نمطين من الغريب[10]: الأوّل كون اللفظة من الوحشي الذي يخفى معناه. فيحتاج إلى معرفته إلى أن يظهر مبسوطا والآخر أن تخرج اللفظة إلى المعنى البعيد الذي لا يُمسَك له بطرف. ومن هذا التمييز، ذهب المشتغلون بالعربية والبلاغة إلى وضع معايير،

فرّقوا فيها بين اللفظ الغريب وما يقابله من فصيح، قال السيوطي: "معرفة الحوشي والغرائب والشواذ والنوادر هذه الألفاظ متقاربة وكلّها خلاف الفصيح"[11].

لكن السؤال الذي ينطرح بقوة في هذا المقام: هل وضع المشتغلون "بغريب القرآن" و"غريب الحديث" مصنفاتهم ليحصروا ما الشواذ والنوادر والحوشيّ المخالفة للفصيح، أم أنّهم قصدوا بلفظة "غريب" معنى مغايرا؟! وإذا كان الشاذ والنادر والغريب مخالفا للفصيح، فهل يصحّ أن نصف مفردات القرآن والحديث بأنها مخالفة للفصيح؟!

والجواب، هو أنّ الذين صنفّوا الكتب في "غريب القرآن" و"غريب الحديث" إنّما قصدوا شرح أو تفسير ألفاظ القرآن أو الحديث، بدليل اعترافهم بذلك؛ قال "الراغب الأصفهاني": "وذكرت أن أوّل ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللّفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه... وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجّي، فنقدم ما أوله الألف ثم الباء"[12]. كما يذكر السيوطي في "الإتقان" أنّ أبا عبيد قال في مقدمة كتابه: "قال أبو عبيد في فضائله حدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، قال أبو عبيد يعني كان يستشهد على التفسير"[13]. ومعنى ما سبق أن القصد هو شرح مفردات القرآن وتفسيرها، لأن ألفاظ القرآن فصيحة وليست غريبة بالمعنى الذي قد يُفهم من مصطلح "الغريب". مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[14] وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[15].

كما أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أبان عن فصاحته في أكثر من حديث، كقوله: أنا أعْرَبُكُمْ، أنا من قريش ولساني لسان بني سعد[16]. فلا يعقل أن يكون معنى لفظة "الغريب" المناقضة لكل ما هو "فصيح" هو الشاذ والحوشي في كلام الله أو كلام نبيّه؟!!

وبعد كلّ ما قيل، وما جاء من كلام القدماء، نستنتج أنّ أصحاب مصنفات "الغريب" إنّما انصبّت جهودهم حول شرح الألفاظ، بعيدا عن استجماع "الغريب" بالمفهوم البلاغي والصرفي للّفظة. لأنهم –وبالعودة إلى مصنفاتهم– شرحوا الموادّ اللّغوية حسب الموضوعات المتعلقة بها ويمكن للقارئ أن يعود إلى "الغريب" لابن الأثير أو "الفائق" للزمخشري ليتأكد من أن المصُنَّفيْن قد أُلِّفا لشرح المواد اللّغوية بحسب تخصصها. وذلك شبيه بالمعاجم اللّغوية المعروفة.

وبالإضافة إلى ما سبق نقول إن العرب كانوا قبائل شتّى، فما كان متداولا عند قبيلة، كان غريبا عند أخرى، وذلك لاختلاف ألسنتهم ولهجاتهم. وقد ذكر "ابن فارس" هذه المسألة حين قال: "كل هذه اللّغات مُسمّاة منسوبة وهي إن كان لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاوَرَها كَلٌّ. ومن الاختلاف اختلاف التضاد، وذلك قول (حِمْيَرْ للقائم: ثِبْ أي اقعدْ)"[17]. معنى هذا أن من القبائل من يقول للقاعد: ثِبْ أي قُمْ. لأن كلّ لغة تختلف عن غيرها في معناها.

ولا أدلّ على هذا الاختلاف في اللّغة، ما ورد في تاريخنا الإسلامي من حادثة قتل الشاعر "مالك بن نويرة" على يد "خالد بن الوليد"، حيث "أمر خالدٌ جنده قائلاً: "أدفئوا أسْراكُمْ" ومعناها في لغة قوم كنانة: القتل، فقتلوهم، وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة"[18]. وإنما جاءت لفظة (أدفئوا) في ليلة شديدة البرد، شديدة المطر ولكن اللفظة نفسها تحمل معنى القتل في لغة كنانة.

والواقع أن الاختلاف بين لغات العرب وألسنتهم مسألة شائكة تحتاج إلى بحث مفصل لا يسعه هذا المقام، كما أن الشواهد على هذا الاختلاف كثيرة بحيث لا تحصى، ولعلّ كل ذلك دعوة للباحثين كي يتعمقوا في مثل هذه المسائل اللّغوية ويضيفوا على جهود المتقدمين ما لم يُتناول بالتفصيل والبحث.

الضبط الاصطلاحي لعلم غريب الحديث:

هو علم يبين ما يخفى معناه من ألفاظ الحديث وقد "اهتم علماء المسلمين به، لما يترتب عليه من ضبط ألفاظ الحديث وفهم معناه إذ من العسير على المرء أن يروي ما لا يفهم، أو ينقل ما لا يحسن أداءه"[19] وكانت العناية بمعرفة الحديث الخطوة الأولى إلى فهم معناه واستنباط الأحكام منه.

وقد أشار الإمام "ابن الأثير" في مقدمة كتابه "النهاية"[20] إلى أهمية علم الحديث وذكر أنه ينقسم إلى قسمين: الأول معرفة ألفاظه والآخر معرفة معانيه، كما يرى أن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة لأنها الأصل في الخطاب وبها يحصل التفاهم، فإذا عُرفت ترتّبت المعاني عليها فكان الاهتمام ببيانها أولى، ويقسم الألفاظ إلى: مفردة ومركبة ويذكر أن معرفة المفردة مقدمة على معرفة المركبة؛ لأن التركيب فرع عن الإفراد، ويذهب على تقسيم الألفاظ المفردة إلى قسمين أيضا: أحدهما خاص، والآخر عامّ. وأمّا العام فهو ما يشترك في معرفته جمهور أهل اللسان العربي، ممّا يدور بينهم في الخطاب، وتناقلوه. وأمّا الخاصّ (وهذا بيت القصيد) فهو ما ورد فيه من الألفاظ اللّغوية والكلمات الغريبة التي لا يعرفها إلاّ من عُنِيَ بها، فكان الاهتمام بمعرفة هذا النوع الخاص من الألفاظ أهمّ ممّا سواه، إذ الحاجة إليه ضرورية في البيان.

وهكذا أسهم علماء اللّغة وعلماء الحديث في بيان وشرح غريب ألفاظ الحديث لتيسير معرفة الدّين وفهمه على الناس، وكذا في التأصيل الكبير لمفردات العربية، فخدموا بذلك اللّغة والحديث خدمة وافية من حيث التأصيل اللّغوي للغريب من جهة والبيان المعنوي لهذا الغريب من جهة أخرى. فاستندوا في التأصيل اللغوي للغريب على علوم اللّغة من نحو وصرف وبديع وبلاغة بمختلف صنوفها وفنونها لأن الوجه البلاغي للحديث الغريب هامّ جدّا حيث تعمل اللفظة الغريبة على تبيان الوجه البليغ في الحديث، فتظهر فيه الاستعارة والتشبيه والكناية وغير ذلك من فنون البلاغة.

أمّا التأصيل المعنوي لغريب الحديث فيظهر في تقصّي الأصل الدلالي للاستعمال اللّغوي الوارد في الحديث الغريب "كعقد الصلة بين الدلالة اللّفظية الحسيّة وانتقال هذا الأصل إلى دلالة معنوية فيها جِدّةٌ وسَعةٌ"[21]. فهذا الحسّ اللّغوي الدّقيق في عقد الصلة بين دلالة الألفاظ وأصلها، ينم عن فقه واسع باللّغة ومخبوءاتها.

سيمياء الأنساق الثقافية في حديث "أم زرع":

أولا. النسق الخارج–نصّي:

1– تخريج الحديث وأبرز شُرَّاحه:

إنّ الحديث الشهير بحديث "أم زرع" قد أخرجه الشيخ "البخاري" في كتاب النّكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل[22]، كما أخرجه "مسلم"[23] في كتاب فضائل الصحابة –رضي الله عنهم– في باب ذكر حديث "أم زرع" وأخرجه "النسائي"[24] في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب شكر المرأة لزوجها وغيرهم.

أمّا عن شُرَّاح الحديث فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"[25] أنه قد شرح حديث أم زرع إسماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري، روينا ذلك في جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ من روايته عنه، وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلم لا يحفظ عددهم، وتعقب عليه فيه مواضع، وأبو سعيد الضرير النيسابوري، وأبو محمد بن قتيبة كل منهما في تأليف مُفرد، والخطابي في شرح البخاري وثابت بن قاسم وشرحه أيضا الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر ابن الأنباري، ثم إسحاق الكاذي في جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقوب بن السكيت وعن أبي عبيدة وعن غيرهما، ثم أبو القاسم عبد الحكيم بن حبان المصري ثم الزمخشري في الفائق، ثم القاضي عياض وهو أجمعها وأوسعها وأخذ منه غالب الشرّاح بعده، وقد لخصت جميع ما ذكروه.

2– مناسبة الحديث:

والواقع أن "الحافظ بن حجر" قد أفاض في ذكر ما تعلّق بالحديث، ليس شُرّاحه وحسب، بل ذهب إلى ذكر سببه ومناسبته، حيث ورد في كتاب "الفتح"[26] أنّ هذا الحديث وقع بسبب عند النسائي من طريق عمر بن عبد الله بن عروة، عن عروة، عن عائشة قالت: "فخرتُ بمال أبي في الجاهلية، وكان ألف ألف أوقية، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– "اسكتي يا عائشة فإني كنت لك كأبي زرع لأمّ زرع"". ووقع في رواية الزبير بن بكّار: "دخل عليَّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعندي بعض نسائه، فقال يَخُصُّني بذلك: "يا عائشة أنا لك كأبي زرع لأمّ زرع"".

كما ذكر ابن حجر أن إيراد النبي –صلى الله عليه وسلم– هذه الحكاية يعني حديث أم زرع ليس خليا عن فائدة شرعية، وهي الإحسان في معاشرة الأهل، ثم قال: وليست الفائدة من الحديث محصورة فيما ذكر بل سيأتي له فوائد أخرى[27].

والملاحظ أن الحافظ بن حجر في كتاب "الفتح"، كان قد أشار إلى أنّ الحديث هو قول عائشة – رضي الله عنها– إلاّ فيما تلفظ به النبي –صلى الله عليه وسلم– حين قال: "كنتُ لك كأبي زرع لأمّ زرع"، يقول ابن حجر: "وليس فيما ساقه البخاري التصريح بأن النبي –صلى الله عليه وسلم– أورد الحكاية، وقال القاضي عياض: ولا خلاف في رفع هذا الحديث: (كنتُ لكِ كأبي زرع لأمّ زرع) وإنما الخلاف في بقيته، وقد قال أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي الحافظ: المرفوع من هذا الحديث إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– قوله لعائشة: (كنت

لك كأبي زرع لأمّ زرع)، وما عداه فمن كلام عائشة –رضي الله عنها– حدّثت به هي النبي –صلى الله عليه وسلم– "[28]. ممّا يعني أنّ عائشة –رضي الله عنها– هي من نقل كلام النسوة إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم نقل هو الحكاية إلى الصحابة، فأخرج الحديث في باب حسن المعاشرة لأن النساء المتحدثات إلى عائشة —رضي الله عنها– كُنَّ بمثابة المدرسة التي تتعلّم فيها النساء الأخريات حسن معاشرة أزواجهن.

كما يذكر الإمام "الحافظ" أنه قد "زاد في رواية الهيثم بن عدي في الألفة والوفاء لا في الفرقة والجلاء، وزاد الزبير في آخره: ألا إنه طلقها وإني لا أطلقك، وزاد النسائي في رواية له والطبراني قالت عائشة يا رسول الله بل أنت خير لي من أبي زرع، وفي أول رواية الزبير: بأبي أنت وأمّي لأنت خير لي من أبي زرع لأم زرع"[29].

3– نصّ حديث "أم زرع":

"عن عائشة –رضي الله عنها– قال: "جَلَسَتْ إحدى عشرة امرأة فتَعَاهدنَ وتعاقدْنَ أن لا يكْتُمْنَ من أخبار أزواجهن شيئًا.

فقالت الأولى: زَوْجي لحمُ جَمَلٍ غَث، على رأس جَبَلٍ وَعْر، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمِينٌ فينْتَقِلْ.

قالت الثانية: زوجي لا أثيرُ خَبَرَهُ، إنّي أخافُ أنْ لا أَذَرَهُ، إنْ أذكُرْهُ أذكرُ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ.

قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّقْ، إنْ أنْطِقْ أُطَلَّقْ، وإنْ أسْكُتْ أُعَلَّقْ.

قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تِهامةَ، لا حَرَّ ولا قَرَّ، ولا مَخَافةَ ولا سَآمَةَ.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فَهِدْ، وغن خرجَ أسَدْ، ولا يُسْأَلُ عَمّا عَهِدْ.

قالت السادسة: زوجي إن أكل لَفَّ، وإن شرِبَ اشْتَفَّ، وإن اضْطَجَعَ الْتفّ ولا يولِجُ الكَفَّ ليعلمَ البَثَّ.

قالت السابعة: زوجي عَيَايَاءْ أو غياياءْ، طَبَاقاء، كلُ داء له داء، شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جمعَ كُلاًّ لكِ.

قالت الثامنة: زوجي المسُّ مَسُّ أرنَبْ، والريحُ ريحُ زرْنَبْ.

قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرمادِ، قريبُ البيتِ من النادِ.

قالت العاشرة: زوجي مالكٌ، وما مالكٌ؟ مالكٌ خَيْرُ من ذلِكَ، له إِبِلٌ كثيراتُ المبارِكْ، قليلاتُ المسَارحْ، إذ سَمِعْنَ صَوْتَ المزْهَر أيْقَنَّ أنَّهُنَّ هَوَالِك.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبُو زَرْع، وما أبو زرع؟ أَنَاسَ من حُلِيٍّ أَذُنَيَّ، وملأَ من شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وبَجَّحَنِي فَبَجَحْتُ إليَّ نفسي وَجَدَني في أهْلِ غُنَيْمَة بَشَقٍ، فَجعلني في أهل صهيل وأطَيطٍ، ودائِسٍ ومُنَقٍّ، فعِندهُ أقولُ ولا أُقَبَّحْ وأرْقُدُ فأتصبَّحْ، وأشْرَبُ فَأَتَقَمَّحْ، أمُّ أبي زرع فما أمّ أبي زرع؟ عُكُومُها رَدَاحْ، وبَيْتُها فسَاحْ، ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضْجعُه كَمِسَلِّ شَطْبَة، وتُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفْرَة".

بنْتُ أبي زرع، فمَا بِنْتُ أبي زرع؟ طَوْعُ أبيها وطوْعُ أمّها، وملءُ كِسَائِها وغَيْظُ جَارَتِهَا، جَارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟ لا تبُثُّ حديثَنّا تبْثيثًا، ولا تَنْقُثُ ميرَثَنَا تَنْقِيثًا، ولا تملأُ بيْتَنا تَعْشِيشًا. قالت: خرج أبو زرع والأوْطابُ تَمْخَضُ، فَلَقِيَ امرأةً مَعهَا وَلَدانِ لها كالفَهْدَيْنِ، يلعبان مِن تحت خَصْرِهَا بِرُمّانَتَيْن، فَطَلَّقني ونَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعدَه

رَجُلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وأخَذَ خَطِيًّا وأراحَ عليَّ نِعَمًا ثَرِيًّا، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجًا، وقال: كلي أمّ زرع! ومِيري أهلكِ، فلوْ جَمعتُ كلّ شيءٍ أعطانيهُ ما بَلّغَ أصْغَرَ آنيةِ أبي زرع.

قالت عائشة –رضي الله عنها– فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كنتُ لكِ كأبي زرع لأمّ زرع".

ثانيا. النسق الداخل–نصّي:

1– سيمياء نسق العنونة:

أولت الدراسات المعاصرة في نظريات القراءة وسيميائيات النصّ وجماليات التلقي، أهمية فائقة لعنوان النص، واعتبرته مكوّنا ودالاً أساسيا، وقد جعله الناقد الفرنسي "جيرار جنيت" Gérard Genette من النصوص الموازية الدّالة التي ترافق النصوص الرئيسة والتي لا يمكن التفريط في وجودها أو التغاضي عنها. وتكمن أهمية العنوان في كونه أوّل المؤشرات التي تدخل في حوار مع المتلقي، فتثير فيه نوعا من الفضول المعرفي، بل كثيرا ما يتعذر على القارئ أن يلج عوالم النص بغية تفكيك بنياته التركيبية والدّلالية واستكشاف مدلولاته ومقاصده التداولية دون امتلاك المفتاح، أعني "العنوان".

ويرى "جنيت" أن مقاربة "ليو هويك" Léo Hoek تعدّ الدراسة الأعمق التي تناولت العنوان "من منظور مفتوح تؤطره السيميائيات.. منطلقا من تعريفه له كمجموعة علامات لسانية.. تصور وتعين وتشير إلى المضمون العام للنص"[30]، كما تجذب القارئ إليه.

إذن، العنوان، هو البهو الذي يتم من خلاله الولوج إلى النّص، إنّه "العلامة الدّالّة على النص"[31]، ولكنه، وفي الوقت ذاته "يفتح سؤالا لا تتم الإجابة عنه إلاّ متأخرا"[32]. وقد تصيب هذه الإجابة وقد تخطئ.

إنّ العنوان يعرّي السّائد الاجتماعي والمنظومة الفكرية والأنساق الثقافية المتوارية خلف المتن، كما يعرّي العناصر الكاشفة لكلّ تلك المرجعيات، فيتصادم القارئ مع "النصّ الفَحْل" –على حد وصف إدوارد سعيد– وتبدأ عملية تهشيم الدلالات القلقة ورصد العلاقات المتوترة التي يخلقها هذا اللّقاء المفخخ بين قارئ باحث عن تفكيك شِفرات دلالية وعنوان يمارس فعل الغواية، وهو يتربع في أعلى النّص.

من هذا المنطلق، ارتأت هذه المقاربة، الوقوف مع عنوان الحديث "أمّ زرع" لتفكيك بنيته وشفرته الدلالية ووظيفته بالنسبة للمتن الذي يقدمه. لكن السؤال الأوّلي الذي ينبغي أن نطرحه هنا هل يعتبر الملفوظ "أم زرع" عنوانا للحديث؟ أم هو ثيمته Thème التي تحدّده؟

قيمنٌ بنا أن نشير أوّلا –ولو باقتضاب– إلى أن العنونة ظاهرة لغوية عُرفت في الثقافة العربية القديمة، لأن الحضارة الإسلامية ارتبطت بتدوين المعارف والعلوم وتصنيفها. غير أن فكرة صياغة العنوان وبنائه في هذه المرحلة البكر من التدوين في الحضارة الإسلامية لم تكن جلية واضحة، فالإشارات الواردة في عناوين هذه الحقبة تعبّر بشكل من الأشكال عن المدوّنة نفسها. فإذا قلنا مثلا: كتاب "ابن كثير" فهو يدلّ على مدوّنة لابن كثير، دوّن فيها ما فسره من آيات القرآن الكريم. و"لاشك أن العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصّه أو تكون معه أحكم وأسبق لإدراك الرّائي للمسمّى، ويسمّون القصيدة

الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء القرآن كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردّد فيها شيء كثير من أحكام النساء"[33].

وعليه، فقد سُمّي الحديث قيد مقاربتنا بحديث "أم زرع" بما هو أشهر فيه، لأنّ "أم زرع" كانت أكثر النّسوة استحواذا على الكلام في وصف زوجها وطباعه وأخلاقه، فسمّي الحديث نسبة إليها لذلك السبب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن عنونة الحديث إنّما أُخذت من ثيمته (موضوعه). فإذا سلَّمنا بأن العنوان هو "رسمٌ وسِمة توضع على الشيء تعرف به"[34]، فإنّ الملفوظ "أم زرع" هو سمة هذا الحديث وُضعت عليه فصارتْ تُعرف به. وبالتالي، تحوّل المتن من ثيمة إلى عنوان.

فإذا عرّجنا نحو تفكيك بنية هذه العنوان (حديث أم زرع)، فإننا نقف عند ما يلي:

أ– البنية المعجمية:

إذا تأمّلنا المستوى المعجمي في عنوان "حديثُ أمِّ زرع"، نجد أنّه يتشكل من ثلاث وحدات معجمية هي:

حديثُ/ أمِّ/ زرع

وإذا بحثنا وتقصّينا الحقول المعجمية لهذه الوحدات، كما وردت في معاجم اللّغة فسنحصل على الآتي:

حَديثُ: جاء في لسان العرب: "الحديثُ نقيضُ القديم وهو الجديد من الأشياء، والحديثُ، الخبرُ القليل والكثيرُ، والجمع أحاديث كقطيع وأقاطيع.. وأمّا أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلّم) فلا يكون واحدها إلاّ حديثا ولا يكون أحدوثة والأحدوثة: ما يُتحدّث به"[35].

فلفظة "حديث" من حيث أصلُها اللغوي تحمل دلالة الجِدّة المناقضة للقدم وكذا معنى الخبر قلّ أو كثر بالإضافة إلى المعنى المتعارف وهو كلام النبي (صلى الله عليه وسلّم).

أمّ: جاء في لسان العرب: "الأمُّ: والأمّ كالأمّة، والأمّة القرن من الناس، يقال قد مضت أُمَم أي قرون، وأمّ الشيء أصلُه والأمّ والأمّة الوالدة.

ورد في التهذيب يجمع الأمّ من الآدميات وأمّهات، ومن البهائم أُمّات، قال الجوهري: أصل الأمّ أُمَّهَةٌ ولذلك تُجمع على أمّهات"[36].

ولهذا قالت العرب قديما الأمّ أُمَّةٌ، فهي من يربّي أمة بأكملها، فإمّا تكون صالحة أو تكون غير ذلك.

وتحمل لفظة "أم" دلالة زمنية في لفظة "القرن"، فالأمم صانعة الزمن والقرون. ولهذا فأصل الأمّ والأمّة واحد وهو الوالدة. وأشار ابن منظور في معجمه قوله: "وأمّ القوم رئيسهم، قال ابن دريد: كلّ شيء انضمّت إليه أشياء فهي أمّ لها، وأمّ القوم رئيسهم أي سيدهم، الأزهري: يقال للمرأة التي يأوي إليها الرّجل هي أمّ مثواه"[37] ولهذا فإن أمّ البيت سيّدته وأمّ مثوى الرجل زوجته.

زرع: قال ابن منظور: "زرعَ الحَبَّ يزرعه زرْعًا وزِراعةً بذَرَهُ والاسم: الزّرْع وقد غَلَبَ على البُرِّ والشعير وجمعه زروع".

وزروعٌ: اسم وفي الحديث: "كنتُ لكِ كأبي زرع لأمّ زرع" وزُرْعةُ وزُرَيْعُ وزُرْعان أسماء"[38].

إذن: المعنى المتداول المعروف هو البّذْرُ والحَبُّ من القمح والشعير، ولكن العرب تداولته كأسماء تسمي بها أنفسها ولهذا كُنِّيَت "أمّ زرع" على ابنها ونسبة إليه.

ب– البنية النحوية:

يتربع العنوان "حديث أمّ زرع" أعلى المتن الذي يقدمه مشبعا بالتسمية الظاهرة. فعلى مستوى البنية السطحية للعنوان، نلحظ بنية لغوية مختزلة نحويا إذ يتشكل فيها هذا الأخير من ثلاثة دوالّ محورية هي:

حديثُ/ أمِّ/ زرع

فأمّا بنيته فعبارة عن تركيب اسمي يغيب عنه الفعل، إذ يشكل هذا التركيب التقاطب الأعلى الذي يشتغل بالإضافة. فيتصدر المبتدأ (حديثُ) العنوان وهو مضاف ثم يتبعه مضاف إليه (أمِّ) الذي يشتغل بدوره على الإضافة ليرتبط علائقيا ونحويا مع مضاف إليه آخر هو (زرعٍ). وبالتالي نحصل على الأصل في العنوان وهو المبتدأ (حديث) و(أمّ زرع) مضاف، ممّا يبرز فضل الأوّل على الثاني وليس العكس.

كما ظهر في العنوان الاشتغال على آلية الحذف النحوي، وتحديدا حذف خبر المبتدأ، وهي خاصية تتميز بها العناوين الدقيقة المركزة المكثفة والمحدودة الكلمات. وقد يترك هذا الحذف فجوة في العنوان يتصادم معه القارئ وهو يضع تساؤلات عديدة تدفعه إلى ردم الفجوة التي تسبّب فيها الحذف وهذا "النقص الدلالي الذي يجتاح بعض العناوين بحذف الخبر من شأنه أن يحقق الوظيفة الإستراتيجية للعنوان باستقطاب اهتمام المتلقي وإثارته، ولذلك يعدّ الحذف خاصية مكوّنة للعنوان"[39] على اعتبار أنّ كل عنوان هو "ليس سكونيا بقدر ما هو علامة متحركة تفرض النصّ كمعنًى آتٍ"[40].

وعلى خلاف العناوين العربية القديمة التي تتميز بالطول والسجع في أغلب الأحيان، يشكل العنوان "حديث أمّ زرع" نوعا من "الاقتصاد اللغوي الذي يفرض أعلى فعالية ممكنة ممّا يدفع إلى استثمار منجزات التأويل"[41]. وهذا ما يجسّد فعلا سيميائية العنوان في هذا الحديث، إذ إنّ مبرّر وجود آلية حذف الخبر في صيغة العنوان النحوية هو الضرورة البلاغية التي تخلّص الكلام من الزوائد بحيث إنّ "الفجوات النحوية هي شكل لغوي موازٍ لفجوات نفسية صادمة للملتقي ممّا يطرح مسألة الغموض الدّلالي للعنوان"[42]. وبالتالي يصبح الحذف بهذا المعنى ظاهرة موازية للغموض، فلا يتحقق الثاني دون وجود الأوّل لأنّ "الحذف يشتغل على المستوى التركيبي للعنوان بينما يشتغل الغموض على المستوى الدلالي"[43]. ممّا يدفع بالقارئ إلى سدّ الفجوات التي أحدثها هذا الحذف باحتمالات أو تساؤلات من قبيل: من هي أم زرع؟ ما قصتها؟ ما موضوع الحديث الذي سمي باسمها؟.. إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا يجيب عنها إلاّ الولوج إلى المتن.

ولتجسيد هذا المستوى النحوي للعنوان "حديثُ أمِّ زرعٍ"، نقترح الخطاطة الآتية، والتي تشير إلى انسجام الوحدات المتجاورة (حديث / أم / زرع)، والتي يطلق على هذا النوع من المركبات "الركن الاسمي"(*) (ركن اسمي = اسم + ركن اسمي):

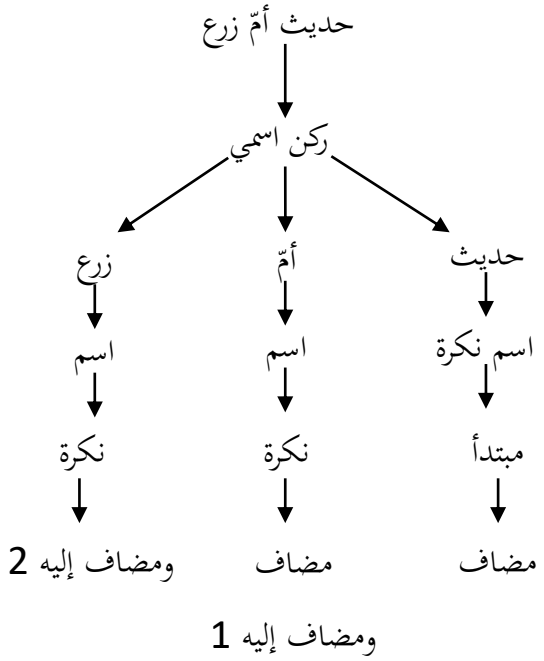

ج–نسق البنية الوظيفية:

ذهب "شارل غريفل"Ch. Grivel على تحديد وظائف العنوان ضمن ثلاثة محدّدات هي[44] وظيفة تعيين الكتاب والإشارة إلى محتواه ووضعه في إطاره القيمي. بينما حدّد "ليو هويك" L. Hoek وظائف العنوان بأنها "مجموعة علامات لسانية... تظهر في أعلى النص بغرض تعيينه وتحديد محتوى النص العام وجلب اهتمام الجمهور المقصود"[45]. وقد علّق "جنيت" على هذه الوظائف بقوله: "إنها تبدو لي نقطة انطلاق مقبولة، مع أنها تحتاج إلى بعض الملاحظات والإضافات... بداية فإن الوظائف الثلاث المذكورة (الوظيفة التعيينية، ووظيفة الإشارة إلى المحتوى، والوظيفة الإغرائية) لا يشترط أن تكون كلّها مجتمعة في عنوان واحد، فأمّا الأولى (الوظيفة التعيينية) فإنها الوحيدة التي يجب أن يحتوي عليها العنوان أمّا الوظيفتان المتبقيتان فإنهما إضافيتان زائدتان"[46].

نستنتج من تعليق "جنيت" أنّه لا يعارض "غريفل" و"هويك" في تحديد وظائف العنوان، بل إنّه يتبنّاها، غير أنه يرى أن الوظيفة الأساسية في العنوان هي الوظيفة التعيينية La fonction designative فأيّ وظيفة أنيط بها عنوان "حديث أمّ زرع"؟!.

يتقمّص العنوان "حديث أمّ زرع" الوظيفة التعيينية من خلال تقديمه لبطاقة هوية النص. إلاّ أنّ هذا التعيين يشوبه بعض الغموض نظرًا لعدم إفصاح العنوان عن مضمون النص (المتن). فالقارئ قد يؤوّل مدلول العنوان بأوجه مختلفة، تظهر برؤى غير تلك التي يطرحها في علاقته بالنص لأنه عنوان حمّال أوجه يجعل المتلقي في حالة تساؤل دائم عمّا قد يحويه النص بعد هذه العتبة. فإذا سلّمنا بأن هذا الحديث مدرج في باب "النكاح" من صحيح البخاري –وهذا هو الحاصل– فإن وضع تسمية الحديث هو من صلب اختصاص المصنِّف نفسِه (أي البخاري)، إذن، هذا الجهد البشري في التسمية لا يبتعد عن القصدية التي تنفي –وبكلّ قوّة– الاعتباطية في اختيار التسمية ليصير العنوان

هو "المحور الذي يتولد ويتسامى ويعيد إنتاج نفسه وفق تمثلات وسياقات نصّية"[47]. تؤكد هذه السياقات طبيعة التعالقات التي تربط العنوان بنصّه والنصّ بعنوانه بوصفه محورا تنطلق منه كل الدلالات وتنبثق عنه مختلف السياقات النصية وفي الوقت ذاته ينصهر في عملية إعادة إنتاج دلالاته بما تفرضه هذه السياقات.

2- سيمياء نسق المتن:

أ- الأنساق الدلالية للألفاظ الغريبة في الحديث:

لاستكشاف الأنساق الدّلالية للألفاظ الغريبة في "حديث أمّ زرع" كان حريًّا بنا العودة إلى كتاب الحافظ بن حجر العسقلاني "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"[48] -المشار إليه آنفا- للوقوف على الدلالات الحقيقية لهذه الألفاظ، مع الاختصار في بعض الشروح التي أطنب فيها الكاتب (الشارح) والتركيز عل ما يخدم غايتنا في فهم الأنساق المطلوبة، لذلك نقترح جدولة اللفظ الغريب ودلالته في ما يلي:

اللفظة الغريبة	الدلالة
الجَمَلُ الغَثّ	كلحم الجمل في الرّداءة، والمقصود قلة نفعه
الجَبَلُ الوَعْر	لا يوصل إليه إلاّ بمشقة
لاَ سَهْل فيُرتَقَى	لا ينفع زوجته في عشرة
لا سمين فينتقل	لا ينقله الناس إلى بيوتهم لسوء خلقه وتكبره
لاَ أُثيرُ خَبَرَهُ	لا أظهر أوأنثره
أنْ لاَ أَذَرَهُ	أخاف أن لا أترك من خبره شيئا
عُجَرَهُ	تعقد العصب والعروق في الجسد حتى نتوئها
بُجَرَهُ	مثلها ولكنها مختصة بالتي في البطن
العَشَنَّقْ	هو الطويل، المستكره الطول
لَيْلُ تِهَامَة	الليل المعتدل، ليس فيه الحرّ أو البرد
فَهِدْ	وثب كالفهد
أَسِدْ	أقدم كالوحش
لَفّ الأَكْلَ	الإكثار منه حتى التخمة
اشْتَفَّ الشَرابَ	استقصاؤه
لا يولِجُ الكفّ	لا يمدُّ يدَهُ
ليعلمَ البثَّ	ليعلم ما لها من حُزْن
دَاءٌ له دَاء	كل شيء من المعايب موجود فيه
شَجَّكِ	أي جَرَحَكِ في رأسِك

اللفظة الغريبة	الدلالة
عظيم الرّماد	كثير النار من الطبخ للضيوف
المَبَارِكْ	موطن نزول الإبل
المسَارح	موطن رعي الإبل
المزْهَر	الذي يوقدُ النار فيزهرها للضيف
العُكومُ	الأحمال التي تُجمع فيها الأمتعة
رداح	كبيرة كثيرة الحشو
بيتُها فَسَاح	بيت واسع فسيح
أناسَ من حُليّ	ملأ أذنيّ بالحُلّي
ملأ عضدي	سَمَّنني بكثرة الأكل
بجِحْتُ	فرحتُ، وعظمتُ
غُنَيْمَة بشّقٍ	قبيلة غُنْيمة التي تعيش في عُسْرَةٍ
الصهيل والأطيط	الخيل والإبل
الدائس	كثير الزرع فيدوس عليه وهو يمشي
مُنَقٍّ	الأنعام السِّمَان
أَتَقَمَّحُ	الرّي بعد الشرب
مِسَلُ شَطْبَة	أي مسلول القامة كامل الصورة
ذراع الجفرة	يدُ الشاة ذات الأربعة أشهر
تنْقُثُ	تَخُون

فَلَّكِ	جَرَحَكِ في جسدِك
عَيَايَاء طباقاء	الأحمق ينطبق عليه أمره أو وصفه
مَسُّ أرنب	وبر الأرنب الناعم
الزَّرْنَبُ	نبْت طيّبُ الرّيح
رفيعُ العِماد	علوّ البيت لطول صاحبه
طويلُ النِّجاد	طول القامة يحتاج إلى طول حامل السيف

الأَوْطابُ	وعاء اللّبن
رَجُلا سَرِيًّا	من كبار القوم
رَكِبَ شَرِيًا	كب فَرسًا من خيار الفرس في القبيلة
الخَطِّيّ	الرّمْحُ الحادّ
الرائحة	الذبيحة إذا شُوِيَتْ
مِيري أَهْلَكِ	صِليهِمْ وأَوْسِعي عليهِمْ

من الجدول السابق نستنتج ما يلي:

– كثافة اللفظ الغريب في الحديث إلى الحدّ الذي تجاوز السّتين لفظةً على وجه التقريب، وهذه الكثافة تطلّبت من المصنِّف أو الشّارِح جُهْدًا قرائيا ملحوظا، ممّا جعل شرح الحديث يتوزع على فضاء ورقي شاسع.

– تعكس هذه الألفاظ الغريبة النسق الثقافي العام الذّي ميّز البيئة الثقافية العربية القديمة. فقد كان العربي يتداول هذه الألفاظ (الغريبة) وغيرها دونما حاجة إلى وسائط لغوية كحالنا اليوم، ممّا يؤكد –ما جاء سلفًا في هذا البحث– من أنّ اشتغال علماء اللّغة بالغريب، لم يكن من قبيل اعتباره الشّاذ والوحشي وإنّما من باب شرحه وتفسيره لعلّة حمله دلالات مختلفة ومعانٍ تتباين بين قبيلة وأخرى.

– أن الألفاظ الغريبة الواردة في متن الحديث إنما هي شِفْرَاتٌ اجتماعية ونفسية تعكس جملة من المرتكزات الدلالية وكذا التصورات الذهنية التي قد تحيل عليها هذه اللّغة المتفرّدة في إحالتها على أنساق اجتماعية ونفسية للنساء اللّواتي وصفن أزواجهن أوصافا فيها من الدّقة ما ينوء عن الذكر.

– كل هذا الحشد من الألفاظ (الغريبة)، والمفردات التي قد لا نصادفها في أيامنا هذه لقلة تداولها، إنما هي حقل بلاغي ملغوم بفنون التشابيه والاستعارات والكنايات وهو مؤشر لغوي على بلاغة العربي من جهة، وبلاغة الحديث على وجه الخصوص من جهة أخرى.

ب– التعدد الصوتي في متن الحديث:

إنّ القارئ للحديث –قيد مقاربتنا– يلاحظ –عدا غرابة ألفاظه– شيوع ظاهرة سردية لافتة للانتباه، وهي ظاهرة التعدّد الصوتي الحاصلة من التقاء أصوات متعددة في متن واحد، فتولّد عن ذلك تعدّد لغوي. حيث انتشر في النص معجم لغوي فريد، فكان لكلّ صوت سردي (لكلّ امرأة) معجمه اللّغوي الخاصّ به. وذلك "أنّ تعدّدية اللّغة لا تتحقق وهي مفصولة عن تعدّد الأصوات والرؤيات والمواقع وعن الطابع الحواري لمجموع النص"[49].

وبالنّظر إلى الفضاء التصفيحي الذي توزع عليه الحديث، فقد تطلّبت ثيمة الحديث (موضوعه) حضور أحد عشر (11) صوتًا عمِلت كفواعل نصّية ولكن من دون أن نلمس لهذه الفواعل ملامح خارجية واضحة. وإنّما نقع عليها كأصوات نقرأها ولا نتلمَّسُها.

وبتعدّد هذه الأصوات السردية يصبح الحوار بين النّسوة تشخيصا لمواقف إنسانية متعدّدة تجسّدها شخصيات متحدّثة (الزوجات) وشخصيات متحدّث عنها (الأزواج).

وعليه، فقد أتاحت ظاهرة التعدّد الصوتي في توزع أجزاء الحديث، بشكل هرمي يتصاعد فيه التوصيف كلّما طفا صوت سردي على سطح المتن. وهذه الآلية سمحت للصوت السردي المركزي (أمّ زرع) بالتنقل إلى آخر الحديث كي تكون آخر المتكلمين. فالمتعارف عليه، أن الذاكرة القرائية تتلقف الأقرب فالأقرب، و"أمّ زرع" كانت آخر المتحدّثات، وعليه سيرسخ ما قالته لأنّه الأخير. ممّا يعني أنّ صوت "أمّ زرع" هو مركز متن الحديث ومحرّك محور التصاعد الهرمي للحوار.

وبالتالي، اكتسب كل صوت سردي –وإن كان يفتقر إلى الفاعلية– مدلوله الخاصّ، ما جعل العلاقة بين كلّ صوت وآخر (امرأة وأخرى) اعتباطية بالنّظر إلى النمط الاتصالي بينهنّ.

إنّ اللّغة التي عمد كلّ صوت سردي إلى استعمالها هي "دوال" لا تنضوي على "مدلولاتها" إلاّ مرّة واحدة في متن الحديث. وبالتالي أصبح لكلّ مدلول سيميائيته الخاصّة. ويمكننا بهذا تجسيد توزّع ظاهرة التعدّد الصوتي ضمن الشكل الهرمي الآتي:

الصوت المركزي

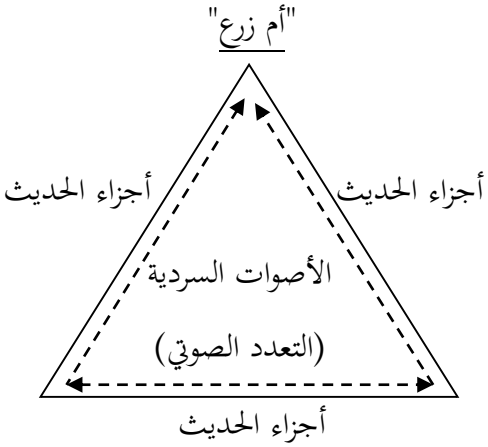

وكما نلاحظ، فإنّ الشكل السابق يبين توزيعا فعليا للأصوات السردية فهناك ذروة الهرم التي تجسدها "أم زرع" والتي سُمِّي الحديث باسمها بوصفها بؤرة الموضوع. بينما تتقابل الأصوات السردية غير الفاعلة ضمن قطبي الهرم. وهذا التوزع يحيل على علاقات دلالية بين أجزاء الحديث من جهة، وبين الأصوات السردية من جهة أخرى.

وممّا ينبغي الإشارة إليه أن الحديث ينضوي على صوتين آخرين يشكلان معًا بؤرة القناة الناقلة للحديث، حيث حدّثت عائشة –رضي الله عنها– النبي –صلى الله عليه وسلّم– بهذه الحكاية ثم نقلها هو إلى الصحابة ليتداولوها. وكان هذان الصوتان المميزان مسك خاتمة الحديث وخلاصة العبرة منه في عبارة "كنت لكِ كأبي زرع لأمّ زرع".

أما النسوة فقد انتشرت أصواتهن داخل هذا الحديث كي يتسنى للقارئ معرفة طباع وأمزجة الأزواج دون أن يتدخل صوت بالسؤال لصوت آخر. وعليه فقد تنامى الحوار بشكل أحادي، أي أن كل امرأة تحدثت عن زوجها

دون أن يطلب منها ذلك لأن الاتفاق في أصله كان حول هذه النقطة. ولكن ما إن بدأت الأولى بذكر أخلاق زوجها حتى توالت الأخريات في فعل ذلك دون أن تكون صيغة "سؤال –جواب" حاضرة، فاستقل كل صوت بذاته حيث لا رابط بين الأصوات إلا ثيمة الجلسة أو موضوع الحديث. ولا نقصد بالروابط العلاقات الإنسانية بل الروابط الخطية التي قد تربط بين الأصوات السردية.

خاتمة:

بعد هذا التطواف السيميائي مع "حديث أم زرع" نخلص إلى أنّ الحديث هو مَنْجَمٌ لغوي وبلاغي ودلالي فريدٌ من نوعه زاد في رونقه وجماله الطابع السّردي الذي تحلّى به، وكأنها حكاية مصوّرة عن طبائع وأخلاق وأوصاف رِيع من الأزواج المتفرّدين بخصائصهم الجسدية والنفسية.

إنّ هذه الدراسة قادتنا للعودة إلى الأثر القديم وتقصّي جمالياته اللّغوية، ممّا يبعث على الانبهار بثقافة السلف من جهة والسعي إلى استكشاف مواطن الجمال فيها من جهة أخرى.

إن "حديث أم زرع"، قد جسّد وبكل براعة الرؤية الداخلية للإنسان العربي في ذلك الزمن، وكشف عن الأنساق الثقافية والاجتماعية والنفسية للبيئة العربية القديمة التي تعكس الجوهر الإنساني العصيّ على الوجود في يومنا هذا.

ونضيف في نهاية هذا المقال أنه على الباحثين اليوم، الاستفادة من الدرس اللغوي والأدبي والنقدي المعاصر في الوقوف عند الظواهر اللسانية والسيميائية التي تحوزها آثارنا العربية القديمة بوصفها حقول خصبة لمثل هذه المقاربات النقدية والأدبية.

المصادر والمراجع العربية:

القرآن الكريم

- النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب): السنن الكبرى، حققه وخرّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 2001، الجزء 05.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، (د.ت).
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، الجزء الثاني، مادة (ح د ث).
- أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق وتقديم: مصطفى الشويمي، مؤسسة أحمد بدران، بيروت، 1964.
- الإمام أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، باب حسن المعاشرة، الجزء السادس.
- الإمام الحافظ ابن كثير القريشي: البداية والنهاية، تقديم محمد عبد الرحمن المرعسكي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الجزء السادس.

• الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار السلام (الرياض)، دار الفيحاء (دمشق)، الطبعة الثالثة، 2000، طبعة جديدة ومنقحة ومقابلة على طبعة بولاق والطبعة الأنصارية التي حقق عدة أجزاء منها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، باب حسن المعاشرة، الجزء التاسع.

• الإمام الرّازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1979، مادة (غرب).

• بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة الأردنية، عمّان، 2001.

• الجوهري (أبو نصر إسماعيل): معجم الصّحاح، تاج اللّغة وصحاح العربية، تحقيق إميل بديع يعقوب، محمد نبيل طريفي، الجزء السادس، دار الكتاب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، مادة (ع ن ن).

• خالد حسين: في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصية، دار التكوين، دمشق، 2007.

• الرّاغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

• الزمخشري: أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، 1976، مادة (غرب).

• السيوطي (جلال الدين): الإتقان في علوم القرآن، المطبعة الأزهرية، مصر، الطبعة الثانية، 1925، الجزء الأول.

• السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973، الجزء 1.

• السيوطي: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرح وضبط: محمد أحمد جاد المولى وعلي بن محمد البهاوي، دار الجليل، بيروت، (د.ت)، المجلد 1.

• الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، طبعة جديدة، 1925، مادة (غرابة).

• شعيب حليفي: النص الموازي للرواية، إستراتيجية العنوان، مجلة الكرمل تصدر عن مؤسسة "بيسان" للصحافة والنشر، العدد 46، عام 1992.

• عادل فاخوري: اللسانيات التوليدية والتحويلية، دار الطليعة، الطبعة الثانية، 1988.

• الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 1978، المجلد 1، مادة (غريب).

• أحمد عبد الغفور عطار: الصحاح ومدارس المعجمات العربية، (د.ت)، السعودية، 1990.

• مجد الدّين بن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد زاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت)، ج1.

• محمّد برادة: أسئلة الرواية، أسئلة النقد، "ردمك" للطباعة والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996.

• محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث، علومه ومصطلحاته، دار الفكر الحديث، لبنان، الطبعة الأولى، 1967.

• محمد مفتاح: دينامية النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1987.

• مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، حققه وفهرسه: عصام الصّبابطي، حازم محمد عماد عامر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994، الجزء الثامن.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- Charles Grivel : Production de l'intérêt romanesque, Ed Mouton, 1973.
- Gérard Genette : Seuils, Ed : Seuil, Paris, 1987.
- Jean Ricardou : Nouveau problème de roman, Ed : Seuil, 1975.
- Léo Hoek : La marque du titre, Ed Mouton, 1973.

الهوامش والإحالات:

[1] مجد الدّين بن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد زاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت)، ج1، ص03.

[2] أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللّغة، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسة أحمد بدران، بيروت، 1964، ص64.

(*) الكتاب يعدّ المؤسِس في هذا المجال فقد كان في طليعة المعجم العربي.

للتوسع يُنظر: أحمد عبد الغفور عطار: الصحاح ومدارس المعجمات العربية، (د.ت)، السعودية، 1990، ص63.

[3] محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث، علومه ومصطلحاته، دار الفكر الحديث، لبنان، الطبعة الأولى، 1967، ص 280.

[4] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، مادة (غ ر ب)، المجلد الأوّل، ص639.

[5] الزمخشري: أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، 1976، مادة (غرب)، ص447.

[6] الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 1978، المجلد 1، مادة (غريب)، ص111.

[7] الإمام الرّازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1979، مادة (غرب)، ص470.

[8] ابن منظور: لسان العرب، ص640.

[9] الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، طبعة جديدة، 1925، مادة (غرابة)، ص167.

[10] ينظر: السيوطي: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرح وضبط: محمد أحمد جاد المولى وعلي بن محمد البهاوي، دار الجليل، بيروت، (د.ت)، المجلد 1، ص186.

[11] المصدر نفسه، المجلد 1، ص233.

[12] الرّاغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص06.

[13] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973، الجزء 1، ص119-120.

[14] سورة يوسف، الآية 2.

[15] سورة الشعراء، الآية 195.

[16] ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، (د.ت)، ص113.

[17] أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق وتقديم: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، 1964، ص50-51.

[18] الإمام الحافظ ابن كثير القريشي: البداية والنهاية، تقديم محمد عبد الرحمن المرعسكي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الجزء السادس، ص322.

[19] محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث، ص280.

[20] ينظر: مقدمة كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، ص03 وما بعدها.

[21] يورد ابن الأثير في هذا الصدد الحديث القائل: "اللهم أرِّ بينهما" فيقول: أي أَلِّفْ بينهما وأثبت الوُدَّ بينهما، من قولهم الدّابة تأري الدّابة إذا انضمت إليها. ينظر: ابن الأثير: "النهاية"، ص134.

[22] الإمام أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، باب حسن المعاشرة، الجزء السادس، ص146-147.

[23] مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، حققه وفهرسه: عصام الصّبابطي، حازم محمد عماد عامر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994، الجزء الثامن، ص228-230.

[24] النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب): السنن الكبرى، حققه وخرّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 2001، الجزء 05، ص145.

[25] الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار السلام (الرياض)، دار الفيحاء (دمشق)، الطبعة الثالثة، 2000، طبعة جديدة ومنقحة ومقابلة على طبعة بولاق والطبعة الأنصارية التي حقق عدة أجزاء منها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، باب حسن المعاشرة، الجزء التاسع، ص316-317.

[26] المصدر نفسه، ص316.

[27] المصدر نفسه، ص317.

[28] المصدر نفسه، ص318.

[29] المصدر نفسه، ص341.

[30] Léo Hoek : La marque du titre, Ed Mouton, 1973, p : 17.

[31] Jean Ricardou : Nouveau problème de roman, Ed : Seuil, 1975, p : 145.

[32] Gérard Genette : Seuils, Ed : Seuil, Paris, 1987, p : 24.

[33] السيوطي (جلال الدين): الإتقان في علوم القرآن، المطبعة الأزهرية، مصر، الطبعة الثانية، 1925، الجزء الأول، ص55.

[34] الجوهري (أبو نصر إسماعيل): معجم الصّحاح، تاج اللّغة وصحاح العربية، تحقيق إميل بديع يعقوب، محمد نبيل طريفي، الجزء السادس، دار الكتاب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، مادة (ع ن ن)، ص33-34.

[35] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، الجزء الثاني، مادة (ح د ث)، ص131-132.

[36] المصدر نفسه، مادة (أمّ)، الجزء الأول، ص135.

[37] المصدر نفسه، ص137.

[38] المصدر نفسه، مادة (زرع)، الجزء 21، ص1826.

[39] خالد حسين: في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النّصية، دار التكوين، دمشق، 2007، ص314.

[40] Charles Grivel : Production de l’intérêt romanesque, Ed Mouton, 1973, p : 171.

[41] بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة الأردنية، عمّان، 2001، ص36.

[42] شعيب حليفي: النص الموازي للرواية، إستراتيجية العنوان، مجلة الكرمل تصدر عن مؤسسة "بيسان" للصحافة والنشر، العدد 46، عام 1992، ص92.

[43] المرجع نفسه، ص93.

[*] اقترح هذا المصطلح الناقد عادل فاخوري في كتابه: اللسانيات التوليدية والتحويلية، دار الطليعة، الطبعة الثانية، 1988، بيروت، ص14.

[44] Charles Grivel : Production de l’intérêt romanesque, p : 169-170.

[45] Léo Hoek : La marque du titre, p : 17.

[46] Gérard Genette : Seuils, p : 19.

[47] محمد مفتاح: دينامية النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1987، ص72.

[48] ينظر: الحافظ بن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، من ص317 إلى ص344.

[49] محمّد برادة: أسئلة الرواية، أسئلة النقد، "ردمك" للطباعة والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996، ص33.